مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 155 - 171 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

دعوة لحوار الحضارات والتعايش مع الآخر عبر رواية "ليون الإفريقي "لـ " أمين معلوف"

An invitation to the dialogue of civilizations and coexistence with the other through the novel "African Lion" by "Amin Maalouf"

* **نوال العايب** (طالبة دكتوراه)

Nawel Laib

جامعة باجي مختار- عنابة – الجزائر

University of Annaba- Algeria

Nawell1986@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2019/03/28	تاريخ القبول: 2020/03/16	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

لقد بنى الروائي اللبناني الفرانكفوني "أمين معلوف" عبر كتاباته جسورا للحوار واللقاء بين الأنا الشرقي بكل مقوماته والآخر الغربي بمختلف مكوناته ، وخاصة من خلال رواية " ليون الإفريقي" ، إذ اختار شخصية متحركة لها وجودها التاريخي الحقيقي وهي شخصية الرحالة الأندلسي" الحسن بن محمد الوزان" ، فرحلات البطل تحقق له إعطاء نماذج مختلفة عن كيفية الحوار والتلاقي والتعايش بين الشعوب وشروط ذلك في كل مرة مركزا على عدة موضوعات مثل الهوية ، والعلاقة بين الأديان ؛ محملا إياه بذلك همومه كلبناني عربي وشرقي ، فهاته القضايا تعد من أهم الأزمات التي تقف عائقا أمام حوار الحضارات وإمكانية تعايش الشعوب ، مقدما لوحات مختلفة فيها وجهة نظره حول هاته القضايا المطروحة على مستوى أعلى الهيئات الدولية ، فالتسامح وقبول الآخر والتخلي في بعض الأحيان عن بعض المقومات والتعامل معها بشكل يضمن الاندماج في المجتمعات الأخرى هي حلول اقترحها الأديب في قالب روائي يحمل الكثير بين طياته، ليكون الإنتاج الأدبي بهذا إحدى الوسائل التي يمكن أن تكون أكثر نجاعة وتأثيرا من تلك التي يستخدمها السياسيون ورجال الفكر والدين.

الكلمات المفتاحية : تلاقي الحضارات ؛ تسامح ؛ تعايش؛ علاقة الأنا بالآخر.

Abstract:

* نوال العايب . Nawell1986@hotmail.fr

The Lebanese Francophone novelist Amine Maalouf, through his writings, built bridges of dialogue and encounter between the oriental ego with all its components and the western one with its various components., especially through the novel "Leon of Africa." He chose a mobile character with a true historical presence, the character of the Andalusian traveler "Hassan bin Mohammed Al Wazzan": "The hero's journeys enable him to give different models of how dialogue, coexistence and co-existence among peoples and the conditions of that each time focus on several topics such as identity and the relationship between religions; thus carrying his concerns as an Arab and oriental Lebanese, these issues are one of the most important crises that stand in the way of Dialogue Civilizations and the possibility of coexistence of peoples, presenting different panels in which his views on these issues at the level of the highest international bodies, tolerance and acceptance of the other and the abandonment of some of the elements and dealing with them in a way that ensures integration in other societies are solutions suggested by the writer in a novel that has a lot of it , So that literary production is one of the means that can be more effective and influential than those used by politicians and men of thought and religion .

Key words : Dialogue of Civilizations, coexistence, The relationship of the ego to the other, tolerance.

مقدمة:

لقد جعل الله الإنسانية موزعة ضمن شعوب وقبائل مختلفة الأعراق و الأجناس والغاية من ذلك هو التعارف، والتعايش وفق السنن الكونية المرسلة من عنده، فالاختلاف إذن ميزة وسنة كونية لا جدال فيها، ولكن مع طبيعة الحياة وطبائع الإنسان تحوّل الاختلاف إلى خلاف ،أدى في كثير من الأحيان إلى الصراع بين الأنواع البشرية المختلفة، حول السيطرة ومناطق النفوذ خاصة، تعزز الصراع أكثر بظهور الإسلام كقوة تملك الميكانيزمات اللازمة للتقليل من هذه الخلافات، ورغم لم يستطع المسلمون حمل هذا اللواء، فظهرت ثنائيات وسمت الصراع بين القوى الإنسانية الموجودة، مثل: شرق/ غرب، مسيحية /إسلام وكذلك الأنا والآخر، وبات من الضروري إيجاد صيغ للتلاقي بين الحضارات الممثلة لهاته القوى، حتى يتم التقليل من الأزمات المطروحة على الساحة العالمية، ومن أجل ذلك عقدت الكثير من المؤتمرات على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية للبحث في سبل التخفيف من حدة الصراعات القائمة خاصة بعد ظهور

الرأسمالية التي عززت الهوة بين الطبقات البشرية، فطفت على الساحة الفكرية العالمية عدة مصطلحات مثل: حوار الحضارات، و صراع الحضارات، حوار الأديان ، وتعايش الأديان وكذلك التبادل الثقافي أو المثاقفة، ويعد التفاعل الثقافي بين الأمم هو الآلية التي ينبغي أن تحظي بالاهتمام والدراسة والدعم بمختلف أنواعه .وهذا هو ما يصبو إليه بحثي هذا، ومن هنا تأتي أهمية تناول هذا الموضوع .

وبالتالي ماهي الرؤى التي قدمها " أمين معلوف" حول هذا الموضوع؟ وما هي الأفكار التي طرحها من أجل حوار الحضارات والتعايش مع الآخر؟

فكتابات "أمين معلوف" تدخل في صميم التبادل الثقافي بين العالم العربي والغربي على اعتبار أنه عربي (لبناني) ويكتب باللغة الفرنسية عن العالم العربي؛ أي أنه يعبر عن الأنا بلغة الآخر وبالتالي فالمتلقي المستهدف هو الآخر هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فالمضامين والمواضيع المطروحة تبحث عن سبل التعامل مع الآخر، وإيجاد الحلول للتفاعل معه بإيجابية من خلال بث العديد من الأفكار حول العلاقة بين الأديان، وتقديم رؤية حول الهوية التي تحقق هذا الهدف، وكذلك من خلال الحديث عن الأنا بمختلف حقائقه فهو يستخدم التاريخ العربي الإسلامي ليؤثث روايته ويعطي أفكاره مصداقية وواقعية وبالتالي يكون أكثر إقناعا كما سنعرض من خلال دراسة النماذج المختارة عبر المحاور الآتية:

أولا: تصور أمين معلوف" للعلاقات العربية/الإسلامية و الغربية/المسيحية من خلال كتاباته:

سنتناول في هذا العنصر إشكالية العلاقة بين العرب والغرب من خلال العمل الروائي" ليون الإفريقي" لـ " أمين معلوف" حيث وجدنا أنّ في هذه الرواية طرح لموضوعة الحوار الحضاري بين الشرق والغرب.

"لقد تعددت صيغ التلاقي عبر حضارات الشرق القديم وحوض المتوسط، وامتدت الصيغ إلى إفريقيا المسلمة، ومصر والأندلس والصين، وكان في ساحات الاتساع ما قارب بين اليونان والشرق، ووحد بين أساطين الفرس والعرب ، وتحققت – يومئذ – القيم المشتركة العليا بين الأديان والأجناس دون جناية على صور المخالفة الأمر الذي يدعو إلى شجاعة المراجعة وجسارة القراءة المنطقية للتاريخ من هذا المنظور الإنساني المفتوح " [1]،وهذا بالفعل ما نلاحظه من خلال

رواية "ليون الإفريقي" على اعتبار أنها رواية تستقي مادتها من هذا التاريخ وخاصة التاريخ العربي- الإسلامي الذي يعد مثالا للتسامح ومركزا للتحاور بين الأديان والأعراق المختلفة ، وسنتعرف على هذا من خلال الرواية .

لنبدأ من غرناطة مسقط رأس "ليون الإفريقي " وعاصمة الأندلس فقد وصفت بأنها " أرض الشعوب جميعا والأديان جميعا " [2]،فهي إذن أرض للتسامح والاختلاف في الوقت نفسه ، وقد عرفت حضارة شملت الإنسانية كلها ، ف"ليون الإفريقي " ولد بغرناطة ورضع حليب التسامح من هناك ؛ حيث كانت مثلا العلاقة بين المسلمين واليهود تعرف كثيرا من الود والاحترام ويبدو هذا من خلال العلاقة القوية التي تربط " أم الحسن" و" سارة المبرقشة"وهي يهودية وقارئة كف ومشعوذة ، حيث كانت تستقبلها في بيتها وتنتصح بنصائحها " وذات صباح قرعت بابناً سارة المبرقشةً (...) وكان من عادتها أن تزورني – تغمدها الله برحمته –"[3]،فهي يهودية ومع هذا فهي تطلب لها الرحمة وتعاملها كما تعامل باقي المسلمين، وبعد سقوط غرناطة طرد اليهود والمسلمين على السواء من طرف القشتاليين المسيحيين، وهنا تظهر صورة المسلمين مشرقة ؛ حيث أنهم وأثناء حكمهم للأندلس كان يعيش في كنفهم أناس من أديان مختلفة ومن أعراق وأجناس متعددة ، وكانوا يعيشون بسلام دون اضطهاد ، ولكن بمجرد استلام القشتاليين المسيحيين الحكم بدأ القهر والتهجير والإكراه التنصر ضد اليهود بصورة بارزة، وكذلك اتجاه المسلمين ، فهاتهً سارةً اليهودية تروي لام "ليون" عند لقائهم في فاس قائلة :" أحمد الله كل يوم على أن هداني إلى سبيل المنفى لأن الذين اختاروا العمادة هم الآن ضحايا أسوأ أنواع الاضطهاد : سبعة من أبناء عمومتي وخؤولتي في الدين وبنت أخ وزوجها أحرقا بتهمة البقاء على اليهودية سرا" [4] فقد أظهر الروائي المسيحيين على أنهم مضطهدين من خلال الأعمال التي قاموا بها اتجاه المسلمين واليهود على رأسها نقض المعاهدة التي تمت بين سلطان غرناطة وملك قشتالة وعدم التزامهم بوعدهم اتجاه المسلمين "...ولكن الأكثرية عارضته (القانون)مذكرة بالاتفاق المعقود قبل سقوط غرناطة وهو يكفل بالحرف لمعتنقي الإسلام البقاء مسلمين ولكن بلا نتيجة"[5] فضلا عن أحكام الإعدام التي أصدروها في حق بعض المسلمين ، وعلى العكس من هذا فقد أظهر المسلمين بصورة مشرقة يتسم أبناءه بالتسامح وتقبل الآخرين على الاختلاف الديني الذي بينهم خاصة اليهود ، والدفاع عنهم والأخذ بحقوقهم " حضر أحد وعاظ تلمسان إلى فاس محرضا

المسلمين على إبادة يهود المدينة ، وما إن علم الملك بأمر هذا الداعية إلى الشغب حتى أمر بطرده"[6] وإذا كانت العودة إلى التاريخ – كما ذكرنا– لأجل العبرة فإن "أمين معلوف" كما يبدو أراد أن يوجه خطابه إلى الغرب المسيحي من جهة و إلى العرب المسلمين من جهة أخرى.

فالغرب الذي يدعي اليوم الديمقراطية ويتقنع بقناع حقوق الإنسان، خاصة فيما يتعلق بعلاقته بالعالم العربي والإسلامي يضرب لهم مثلا بأبناء جلدتهم وبالتالي بأصولهم، مذكرا إياهم بأن هاته الشعارات التي يرفعونها هي راسخة صميم وجدان العرب والمسلمين فهي من أخلاقهم ومكون من مكونات شخصياتهم فكيف يأتون اليوم ويدعون عملهم على نشر الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي .

وبالتالي فهي دعوة من "أمين معلوف" إلى الإنسان العربي من أجل الثقة في قدراته وإمكانياته، والاقتناع أنه باستطاعته النهوض ومواجهة الغرب خاصة فيما يروجه حول التطرف الديني في العالم العربي الإسلامي والذي نتج عنه ما يعرفً بالإرهابً .

هذا ويستمر "أمين معلوف" في استثمار التاريخ وتأثيثه بمتخيل يستطيع من خلاله البوح عن مكنوناته من خلال هاته الكتابة ، فينتقل بنا إلى قلب العالم الغربي، والصراعات الدينية التي تشهدها هاته البقعة من العالم، إلى روما ، فقد شهد "ليون" في روما صراعات داخل الكنيسة وكان آنذاك " الخصام المتفاقم الذي كان بين ليون العاشر والراهب لوثر ، وهو حدث كان قد بدأ يهدد بإغراق أوروبا بأسرها بالنار والدم ولسوف يجر على روما أبشع الكوارث"[7] ، بالإضافة إلى هذا فساد رجال الكنيسة وميلهم نحو البذخ والترف، وخصوصا بعد وفاة البابا ليون العاشر وحلول البابا أدريان محله ، وجاء في الأخير خراب روما على يد الألمان اللوثريين المسيحيين الإصلاحيين كانوا يدعون إلى التغيير ولكنهم متعصبين.

حاملا بهذا هموم بلده وشعبه اللبناني الذي فعلت فيه الصراعات الطائفية الأفاعيل " ذلك أن مجتمعه لم يفلح في بلورة هويته وصنع وحدته، بل كان على الدوام فريسة الانشقاق، وكان نهبا لتفرق الأهواء، وتشتت الآراء، لم تتوحد كلمته ولم تلتحم قواه"[8] هذا بالإضافة إلى عائلة "معلوف" التي كانت تتجاذب أطرافها بين الأرثوذكسيين والبروتستانت ، فلبنان هو فسيفساء من الاختلاف الطائفي الذي أدى إلى الكثير من الصراعات والحروب الأهلية التي حدثت في تاريخه.

وهكذا نجد مسوغا لً أمين معلوفً بعرضه للصراع المسيحي– المسيحي في روما حيث وجد وجد نفسه طرفا فيه ، وبالتالي كان سعيه إلى البحث عن مخرج من أجل السلام والتعايش وقبلها الطوائف المختلفة وذلك من سعي ليون الإفريقي إلى ذلك حيث نجده يقارن بين المسيحية والإسلام ليجد أنها متقاربة فيما تسعى إليه وبالتالي فتقاربها وتعايشها ممكن وذلك بقوله:" ألم يكن لوثر يوصي برفع جميع التماثيل من أمكنة العبادة معتبرا أنها أياء وثنية ؟ وقد قال رسول الله في الصحيح: ً لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورةً ، ألا يؤكد لوثر أن العالم المسيحي هو جماعة المؤمنين وأنه لا ينبغي أن يخضع لتراتيب الكنيسة ؟، ألا يؤكد أن الكتاب المقدس هو وحده أساس الدين ، ألا يهزأ بعدم زواج الكهنة ، ألا يعلم أنه ليس في مقدور الإنسان أن يفر مما قدره له خالقه ؟ إن النبي لم يقل غير ذلك للمسلمين "[9] ومن هنا نفهم أن الأديان كلها تسعى للأهداف نفسها وبالتالي على الناس أن يتكيفوا ويحترموا الاختلاف في الأديان ، لذلك عليهم أن يكفوا عن الاقتتال ، لذلك نجده ساعيا في مهمة من روما إلى القسطنطينية من أجل تحقيق التقارب بين الإسلام والمسيحية ولكنه لم يفلح ويظل يحلم " من أجل السلام ، أليس رائعا أن يتمكن المسيحيون والمسلمون حول البحر الأبيض المتوسط بأسره من العيش والمتاجرة بلا حروب ولا قرصنة"[10]

ثانيا: الهوية عند "أمين معلوف" من خلال " ليون الإفريقي":

لقد طرح " أمين معلوف" تصوره للهوية من خلال رواية "ليون الإفريقي" وكتاب " الهويات القاتلة" .

حيث عبر في الرواية من خلال اتخاذه لبطل أنموذجا يحمل هوية مميزة تجعله قادرا على الحياة والتأقلم معها مهما كان المكان والزمان والظروف حيث قسم روايته إلى أربعة كتب: كل كتاب يحمل اسم مكان ارتبطت به الشخصية الرئيسة " الحسن بن محمد الوزان/ ليون الإفريقي(اسم اكتسبه في روما) " ، وهذه الكتب وضعت حسب الترتيب الزمني لانتقال البطل بينها وهي ، كتاب غرناطة ، وكتاب فاس ، وكتاب القاهرة ، وكتاب رومه .

وكل كتاب يتألف من مجموعة من العناوين الفرعية،كل عنوان منها يمثل سنة من حياة البطل و يحمل اسم الحدث الرئيس الذي حدث في تلك السنة ،فالروائي إذن تتبع سيرة حياة "ليون الأفريقي " منذ ولادته ثم نشأته ورحلاته و انتقاله عبر الفضاءات المختلفة " فالحياة الغنية

بالمغامرات و المفارقات و التنقل بين قارات العالم المعروف أنداك ،كل هذا أنتج ذهنية تتميز بالتعددية و التسامح " [11] ،هذا فضلا عن اكتساب ثقافات جديدة في كل مرة ، وهذا ما أعطاه هويات متعددة ،وسنرى فيما يلي كيف تكونت هذه الهويات و كيف تصرف البطل ضمن هذا التنوع من الثقافات و الروافد التي أسهمت في تكوين شخصيته ، و ما علاقتها بحياة "أمين معلوف"ورؤاه حول موضوع "الهوية" حتى يمكننا أن نعطي نظرة أين يقف في جسر المثاقفة بين الأنا والآخر.

1- الانتماء للأرض: تفتح الرواية بحديث للبطل معرفا بنفسه فيقول " ختنت أنا حسن بن محمد الوزان يوحنا . ليون دومديتشي بيد مزين وعمدت بيد أحد الباباوات ، و أدعى اليوم الإفريقي،ولكني لست من إفريقية،ولا من أوروبة و لا من بلاد العرب ،وأعرف أيضا بالغرناطي و الفاسي و الزياتي ، و لكني لم أصدر عن أي بلد ولا أي مدينة ،ولا أية قبيلة ،فأنا ابن سبيل،وطني هو القافلة وحياتي هي أقل الرحلات توقعا"[12]

نلحظ أنّ الانتماء إلى بلد بعينه ، لا يعده أساسيا، فاللانتماء هو الذي يعتبره محدد الهوية، لقد قضى حياته في الترحال من بلد إلى آخر ،في البر والبحر، ورغم هذا فهو يتحدث عن مكان مولده إذ يقول :" ولدت بالطبع في غرناطة عاصمة مملكة الأندلس الجليلة" [13] إذن فلقد كانت غرناطة مسقط رأسه ، واضطر إلى تركها مع عائلته بعد سقوطها على يد القشتاليين(+)، ورغم هذا فهو لا ينسب نفسه إليها ورغم أنها موطنه الأصلي لا يعتبرها وطنه الوحيد، فكل الأماكن التي زارها لها مكان ضمن تشكيلات هويته، هذا نجده أيضا حين يتحدث عن "فاس"التي دخلها دون رغبته ودون اختياره بل فرقتها الظروف . بعد سقوط غرناطة . فيقول" وأما فاس فكانت شيئا آخر وقد صرفت شبابي بأكله لأعلم ذلك"[14]†. ففيها تعلم، وعمل وتعرف على أصدقاء وتزوج وأنجب أولادا، ومع هذا فهو لا يشعر بالانتماء إليها وحدها دون غيرها .

أما بالنسبة للقاهرة التي دخلها مطرودا ،(بعد أن نفاه سلطان "فاس" و اتهامه بالتواطؤ والتستر على المجرمين) فقد قال عنها:" وأحسست أن تلك المدينة مدينتي ،وشعرت لذلك برغد عارم، فما هي إلى بضعة أشهر حتى كنت قد أصبحت من أعيان القاهرة"[15]، و تمر في حياته

مناطق و أماكن أخرى يتلاءم مع ظروفها و يعيش فيها و كأنها بلده ،فقد شاءت الأقدار كذلك أن يذهب إلى القسطنطينية كسفير وهنا كان مرغما أيضا و لكنه يقول أيضا: " إعادة تنظيم حياتي على القليل من الأرض التي لم أكن أشعر فوقها بأني مطرود"[16]، ويأتي دور رومه التي دخلها أسيرا بعد أن اختطف من قبل قراصنة في جزيرة"جربه " قرب تونس ، وسجن و تغرب، و اضطر إلى الزواج دون اختياره ،وهناك غير دينه و لكنه يقول عنها " وأن رومه أذاقتني سعادتين حقيقيين : السعادة بمدينة قديمة تنبعث من جديد نشوى بالجمال ، والسعادة بابن كان دائما على ركبتي المرأة التي أحبها"[17] ومن هنا يمكننا القول أن "ليون الإفريقي " يحمل بداخله كل هذه الانتماءات دون أن ينسب نفسه لمكان معين ، فهو متحرر من الانتساب إلى أي منطقة جغرافية أو قبيلة ، وكأن انتماءه لمكان معين يكون مدة إقامته ووجوده فيه، أي أنه ليس بالضرورة أن يكون الإنسان منتميا لمكان واحد فقط، فهو يحاول أن يعطي لنفسه صفة الكونية، وهذا دون شك يرجع لتجربة الروائي الشخصية ، حيث أنه عاش وتأقلم في أماكن عديدة ، ويشعر أن هذه الأماكن مجتمعة تشكل عنصر من عناصر هويته.

هذا لأن "أمين معلوف " يريد أن يقول من خلال بطل روايته أن تعدد الانتماء وعدم تقييد نفسك بمكان يحدد هويتك ، هو أيضا شيئا مشروعا ، و لا يمكن أن يكون تنكرا لبلدك الذي يعتبر لدى الجميع مسقط الرأس، فإذا كنت عشت فعلا في أمكنة متعددة وكل مكان أضاف لك شيئا، واكتسبت فيه أشياء، ألا يكون فعلا مكونا لهويتك في انتمائك إلى أرض ما؟. هذا السؤال يمكن أصلا أن يكون قد طرح على أمين معلوف على اعتبار أنه ولد وعاش زمنا في لبنان ، ثم في فرنسا ، هذا إذا حاولنا إسقاط ما جاءت به الرواية على حياة أمين معلوف " حيث أن الأديب يستحوذ على النص ليعبر عن رؤاه ومواقفه وإيديولوجيته في الحياة ، ومن هنا يمكننا أن نفسر رؤية " أمين معلوف " حول الهوية الجغرافية ، فهو كما قلنا ترك مسقط رأسه (لبنان) على إثر الحرب الأهلية التي " بدأت في أبريل 1979 "[18] ، وعاش في فرنسا مند 1976 ، وهنا أيضا يمكننا أن نقول أن الإنسان صحيح يكتسب أشياء جديدة، ولكن هذا ليس مبرر لكي يغيّر من العناصر التي من المفروض تكون ثابتة وجوهرية في الإنسان.

وسنرى في رواية "ليون الإفريقي" أن أهم قضية تطرحها الرواية هي قضية الدين وكيف يتعامل معه الإنسان وماهو دوره في تكوين الهوية، سنحاول أن نتتبع مسار حياة" ليون" خاصة فيما يتعلق بالجانب الديني.

2- الهوية الدينية:

لقد نشأ " ليون" في أسرة عربية مسلمة ،تمارس الشعائر الدينية المختلفة التي نصت عليها الشريعة الإسلامية من صوم وصلاة وحج... . هذا بالإضافة لإحيائهم لمختلف الأعياد الدينية وكذلك المناسبات الاجتماعية المتعلقة بحياة المسلمين كحفلات الزواج والختان .

وعن الختان يقول: " كانوا يفطرون في الوقت الذي يحتفلون فيه بانخراطي في جماعة المؤمنين" أي أنهم يعتبرون الختان مناسبة دينية تحتاج إلى الاحتفال"[19]هذا وبعد انتقاله إلى "فاس" التحق بالمدرسة ،كان مواظبا على حفظ القرآن الكريم وأتم حفظه وهو في الثالثة عشر من عمره، حيث جاء في الرواية:"...ختمت القرآن الذي نفح مراهقتي بالزهو بمعرفة تعليم الشريعة الإسلامية"[20].

من هنا يمكننا القول أن الدين والثقافة الإسلامية متجذرة في شخصية " ليون الإفريقي" ،هذا وكان قد أدى فريضة الحج.أما بالسبة للمحيطين به من أفراد عائلته فتجدهم أيضا متشبعين بتعاليم الشريعة الإسلامية، فتجدهم بين الحين والآخر يرددون آيات قرآنية، هذا من جهة أما من جهة أخرى فتجد أن الحياة ومن ثم الأجواء التي عاش فيها مليئة بالمتناقضات ، صحيح أنهم يطبقون مختلف ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، ولكنهم بالمقابل أيضا تجدهم لا ينتهون عما نهت عنه فهناك عادات لا تمت للإسلام بصلة ولكنهم يمارسونها عن جهل وربما عن غير ذلك أيضا.

فتجد حفلات البذخ والمجون التي كان يقيمها الأمراء وحتى الأسر العادية؛ مثل شرب الخمر في الحفلات وحتى المناسبات الدينية منها كما جاء على لسان" أم الحسن" يوم ختانه : "ولقد امتنعت أن تضيف أنه إذا لم تكن قطرة واحدة قد صبت فإنما كان ذلك احتراما للشهر الفضيل ، فلطالما أتاح الختان في بلاد الأندلس فرصة الاحتفالات التي تنس فيها تماما المناسبة الدينية التي يحتفل بها"[21]؛ أي أنهم يدركون أن شرب الخمر من الأمور التي نهت عنها الشريعة الإسلامية ولكنهم لا يتوانون في شربها، وكما هو معروف فإن من أهم أسباب سقوط الأندلس هو غرق الحكام أولا والناس عموما في مثل هذه الأمور.

كما نجد حيزا كبيرا في الرواية كان فيه الحديث عن الإيمان بالشعوذة والسحر والتمائم وهذه أمور لا تمت إلى الدين بصلة خاصة من قبل "أم الحسن"، ربما كانت تجهل حقيقة تلك الأمور.

وهنا نلاحظ أن" أمين معلوف " يحاول أن يبني شخصية بطل روايته بطريقة تسوغ له فيها أن يحملها أو يدفعها لتتصرف أو تتعامل مع الأمور – خاصة الدينية- بطريقة يسيرة ،ومع هذه القصدية فإنه لم يبتعد عن الجو العام الحقيقي الذي كان سائدا وكما تثبته كتب التاريخ، لذلك نجد البطل في كل مرة وأمام المواقف التي تصادفه لا يتخذ موقفا معينا مع أو ضد ،بل يترك الأمور تمشي كما هي .

هذا ولا يكتفي الروائي بتوظيف العادات والتقاليد عند هذا الحد بل يذهب ويرسم لبطله جو مليء بالممارسات حتى تلك التي تتعلق بالأديان الأخرى فجاء في الرواية:"... فلم يكن يكتفي بالاحتفال بذكرى مولد النبي(...)بل كان يحتفل أيضا بذكرى مولد المسيح"[22] وكذلك" وكان الناس يتلقون فوق ذلك رأس السنة الفارسية " النيروز، كما كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية، وعيد الفصح، وأول أيام الخريف..."[23] وهذه الأمور بالتأكيد ستؤثر في بناء وتكوين شخصية "ليون الإفريقي" ، حيث إنه وبعد أن اختطف واقتيد إلى روما وأهدي إلى البابا "ليون العاشر" ثم إقناعه بالتنصر ففعل"في عيد الفطاس هذا الذي نحتفل فيه بعمادة المسيح بيدي يوحنا المعمدان ،ونحتفل أيضا بحسب السنة المتبعة بالمجوس الثلاثة الذين أتوا من بلاد العرب لعبادة ربنا ،أية سعادة تفوق سعادة استقبالنا في حضن كنيستنا المقدسة (...) جديدا قادما من أطراف بلاد البربر لتقديم قربانه في بيت بطرس"[24] ليتصرف مباشرة بعده وكأنه مسيحي بل ويحاول التأقلم مع الوضع عندما حاول أن يتعود على اسمه الجديد... وهذا مباشرة بعد أن كان قبل لحظات فيحس ويفكر بإسلاميته وهو في قمة الإيمان حيث قال:"وكنت أعاني الأرق في كثير من الأحيان منذ وصولي إلى روما ،وانتهى بي الأمر إلى تمكين ما كان يجعل الساعات مضنية إلى هذا الحد،كان ذلك أشد من غياب الحرية ، وأشد من غياب المرأة، كان غياب المؤذن"[25] ، ومن ثم فكيف لشخص مجرد عدم سماعه للآذان يجعله ذلك يعاني من الأرق، أن يتحول بين عشية وضحاها إلى مسيحي دون أن يحدث ذلك أدنى من الاهتزاز والبلبلة داخل نفسه .

ولكن يمكننا أن نقول أن النظر إلى"الدين" باعتباره مكونا مهما للهوية بهاته الطريقة وهذا المنظور الذي طرحه" معلوف " من خلال روايته "ليون الإفريقي " لا يبدو مختلفا على الإطلاق رغم أن الهدف الذي يتوخاه هدفا ساميا و... وهو الإنسانية والكونية والتسامح، خاصة التسامح الديني"[26]

3. الهوية اللغوية:

تعدّ اللغة من محددات الهوية التي لها وزنها و مكانتها ضمن مكوناتها بل هناك من يذهب إلى إعطائها بعدا أكبر من كونها مكون إلى عدّها هي التي تعطي ا لتمايز " إن اللغة هي المعرفة ، وإنها الخصوصية و الاختلاف في الوقت ذاته ، هي التي تحدد خصوصيته و هويته الحضارية"[27]، كما كان موضوع علاقة اللغة بالهوية من المواضيع المشتركة بين حقول معرفية شتى، شغل العديد من المفكرين والفلاسفة والأنثربولوجين ، وعلماء الاجتماع وعلماء النفس ، بالإضافة إلى الكتاب والأدباء.

ومن هنا سنرى كيف جعل "أمين معلوف" بطله يتحرك ضمن هذا المجال، و ما هو موقفه من اللغة الذي بثه في سلوكيات رؤى بطله ؟.

في بداية الرواية يطالعنا قول "ليون الإفريقي":" ولسوف تسمع في فمي العربية و التركية و القشتالية و البربرية و العبرية ، و اللاتينية و العامية و الإيطالية بأن جميع اللغات و كل الأصوات ملك يدي"[28] لنستنتج مباشرة مدى التنوع اللغوي و بالتالي الثقافي و الحضاري الذي عاش فيه و عايشه "ليون" ، هذه التعددية في اللغات التي يستعملها "ليون" لا يدل بالضرورة على ارتباك هويته بقدر ما تدل على تعدد الثقافات ، و هذا شيء إيجابي بالتأكيد ،بل و ضروري على اعتبار أنه رحالة و بالتالي فإنه يزور أماكن متنوعة من العالم الرحب ، و يلتقي شعوبا ليس بالضرورة أن تكون لهم دراسة بلغته ، و هنا أيضا يمكننا أن نستنتج صفة الكونية التي تتسم بها شخصية "ليون الإفريقي" ، وإذا انتقلنا إلى مستوى دلالي أعمق ،وغصنا في البنية العميقة لهاته الأفكار ،فإنه يتضح لنا أن رحلات بطل الرواية ، ما هي إلا إحالة على حياة الإنسان وما يصادفه من مواقف في حياته حتى في رحلاته من خلال الفكر ، حيث أنه في حياتنا المعاصرة ،ليس بالضرورة على الإنسان أن يمارس الرحلة المادية ، فمن مكانه يمكن السفر إلى أكثر من مكان عبر التقنية التي

يتسم بها عصرنا ، بالإضافة إلى أن الإنسان يتعرّض للغزو بمختلف تجلياته الثقافية والاجتماعية وحتى الدينية وهو في بيته .

فالإنسان إذن دائما في صراع من أجل المحافظة على مقومات هويته، ويجب أن يمتلك المناعة الكافية لتقيه من الإصابة بأمراض الهوية وما أكثرها في عصرنا، وخاصة بالنسبة لدول العالم الثالث وتحديدا شعوب العالم العربي والإسلامي، نظرا للصراع الأزلي بين الشرق والغرب، واكتساب لغات متعددة في مثل هاته الظروف سلاح ذو حدين:

قد يكون إيجابيا إذا استعمله الإنسان كوسيلة لفهم تفكير الآخر ونظرته إليه ، وبالتالي يمتلك الوسيلة للتعامل والدخول معه في علاقات تتسم- بالضرورة- بالأخذ والعطاء ، يعرف ماذا يأخذ وكيف؟ وكذلك يتجنب ما لا يناسبه.

وهذا أقل شيء يمكن أن يستفاد منه إذا كانت علاقة الأخذ والعطاء غير ممكنة، وهنا يمكننا أن نتحدث عن المثاقفة بمعنى إيجابي أي التواصل مع الآخر وتبادل المعارف الأخبار... وقد يكون سلبيا، إذا كان الإنسان غير مدرك لمعالم هويته ، وغير مقتنعا ولا راضيا عن نفسه ضمن التشكيلة البشرية التي ينتمي إليها ، بمختلف أبعادها الدينية والثقافية واللغوية ، فيعمد إلى اكتساب اللغات ليبتعد عن ثقافته ، ويرتمي في أحضان الثقافة التي تمثلها تلك اللغات ، ويلجأ كذلك لاكتساب اللغات خاصة تلك التي تمثل كيانات قوية لأنه تفرض أشياء معينة تحتم على الإنسان في الضفة الأخرى من العالم الضعيف —إن صح التعبير- مواكبة الحياة.

هذا صحيح إذا كان الإنسان لديه الاختيار بين اللغات ولكن هناك مواقف أخرى تحتم على الإنسان أن يتصرف بطريقة معينة، ففي حالة "ليون الإفريقي "الوضع مختلف لأنه لم يكن متاحا لديه هذا الاختيار ، رغم معرفته بلغات كثيرة ، لأن استعماله للغة كان في كل مرة حسب الموقف الذي يكون فيه .

من هنا يتضح أن "أمين معلوف " لا يطرح قضية التعدد اللغوي على أنها مشكلة أو أنها تفريط في أحد مكونات الهوية، بل هي مجرد أداة للتواصل يجب على الإنسان أن يمتلكها ليتواصل مع مختلف المكونات البشرية في العالم، فموقفه من اللغة يتخذ شكلا إيجابيا رغم أنه يرى " أن الاكتفاء في مجال اللغات بالحد الأدنى الضروري، يتنافى مع روح عصرنا و لو أوحت المظاهر بعكس ذلك"[29] فهو يعدّ اللغة محددا للهوية ، واكتساب لغات مختلفة وبالتالي ثقافات

متعددة ، يضمن للإنسان أن يملأ الفضاء الرحب بين لغته الانتمائية واللغات العالمية ، ومن ثم الثقافات التي تمثلها هاته اللغات ، فهو يحرص على أن تبقى اللغة عماد الهوية الثقافية ، ولكنه لا يمانع في التمتع بانتماءات لغوية متعددة ضمن هويته الخاصة[30] وهنا يخرج التعدد اللغوي من كونه أداة للتواصل إلى جعله محددا للهوية ، فهو لا يصنع حدا فاصلا بين لغة الانتماء بامتدادها الثقافي ،وتمثيلها لشخصية الإنسان، واللغات الأخرى المكتسبة كوسائل يستعملها الإنسان في حياته للتواصل مع الآخر.

وهذا ما نؤاخذ "معلوف" فيه لأن الاكتساب والانفتاح يجب أن يكون مقننا وإلا ضاعت هوية الإنسان وتميعت ضمن هذه التعددية ، وجعل اللغة محددا للهوية بهذه الطريقة غير منطقي.

وموقف الروائي راجع إلى البنية السوسيونصية الذي جاء فيها ، فهو تبنى من خلال روايته أفكار عصره ، أفكار العولمة ، فسادت في روايته رؤى الانفتاح والعالمية ، و خاصة مع التطور الحضاري و التكنولوجي الرهيب حيث أصبح العالم عبارة عن قرية صغيرة .كما يقال . و لا بد لأي إنسان أن يواكب هذا التطور، وهذا ما يواجهه الإنسان خاصة في العالم العربي والإسلامي – لأنه في موقف ضعف حضاري – في عصر سادت فيه" جدلية الذات ،و الآخر الحضاري ، الذي يتحدى دائما الهوية الخاصة معرفيا و ماديا ، في حين أن التعايش معه في ظل الواقع العالمي الجديد ، لكن دون أن يؤدي ذلك طبعا إلى انمحاء الوجود المميز للذات"[31] و لتحقيق التعايش مع الآخر يجب أن تعرف لغته ، و لكن تبقى الخصوصية اللغوية و المحافظة عليها شيء صعب في ظل هذا العالم الذي أحرز التطور التكنولوجي فيه عن لغات قوية و لغات ضعيفة ، على حسب العالم الذي ينتمي إليه فهناك عالم متطور و عالم متخلف ، و بالتالي يصبح التعايش يسير باتجاه واحد ، أي باتجاه العالم المتقدم و المسيطر على التكنولوجيا ، فتظهر أنساق لغوية معينة و تمحى أخرى ، خاصة بالنسبة لأولئك الذين ينتمون إلى العالم المتخلف و هذا ما يراه "أمين معلوف "حين يقول " أما بالنسبة إلى كل الذين ولدوا في كنف حضارات مهزومة، فظروف استقبال التفيير و الحداثة تختلف ، فقد كانت الحداثة تعني دائما التخلي عن جزء من الكيان"[32]خاصة اللغة التي يتم التعامل بها و معها في كل وقت ، وهذه النتيجة هي واقع مرير تعيشه اللغة العربية التي يحس أهلها دائما بالضعف و عدم قدرتها على مواكبة التطور السريع الذي يحدث في العالم

نظرا للتبعية الاقتصادية . خاصة . للدول المتقدمة ، وبما فيها الدول المستعمرة تستعمل لغة المستعمر.

إذن فتعدد اللغات بالنسبة إلى "ليون الإفريقي "هي ضرورة للتواصل، خاصة بحكم عمله كسفير، وهاته المهنة تتطلب التعامل مع أناس من غير لغته و هو يذكر هذا في وصفه لإحدى المحادثات التي أجراها مع مستشاري السلطان العثماني :"... المحادثات قد بدأت بالعربية، لم تلبث أن استكملت بالتركية"[33] فأمين معلوف " رغم دعوته للتعدد اللغوي باعتباره ضرورة ملحة في هذا العصر ، و في أي عصر من خلال نموذج "ليون الإفريقي"إلا أنه يعتبرها العمود الأساسي الذي ترتكز عليه الهوية ويجب المحافظة عليها لأنه يرى أن: " الإنسان يستطيع العيش بدون ديانة ولكنه لا يستطيع الاستغناء عن اللغة"[34] ولكن هذا مبالغ فيه لدرجة أنه فيه نوع من الغلط ، لأن الإنسان منذ أن ولد الجانب الروحاني أو الديني له أهميته والإنسان دائما يرتبط بالإله أو بقوة مطلقة مهما كانت ...

ثالثا:التعريف بالأنا من خلال حضور التاريخ في روايتي "ليون الإفريقي":

تبدو رواية "ليون الإفريقي " لـ" أمين معلوف" لمن يطلع عليها لأول وهلة أنها مجرد رواية تاريخية ، تجسد حقبة تاريخية صعبة من تاريخ العالم العربي الإسلامي مضفيا عليها طابعا تخيليا من خلال بعض القصص والحكايات ، خصوصا أن "أمين معلوف" اعتمد في تأثيث نصه الروائي على مؤلَّف معروف وشخصية تاريخية لها هويتها المحددة .

إذن نلاحظ أن "أمين معلوف" في هذا العمل استثمر التاريخ العربي الإسلامي وبنى أفكاره انطلاقا منه، وحمل شخصياته التي استقاها من الواقع همومه وآراءه ، فكان الرحالة الأندلسي" الحسن بن محمد الوزان" .

فجعل سيرة "حسن الوزان" ورحلاته من أجل التعريف بجانب مهم من تاريخ المسلمين ، فكان ذكيا في اختياره للأندلس بلد التسامح وتعايش الأديان والسلام بين مختلف طوائف المجتمع، وكيف كان يعيش في انسجام رغم الاختلافات الكثيرة الموجودة بين أطرافه ، فهو يدعو عبر بطله إلى التسامح بين الجميع مهما كانت درجة الاختلاف، والحوار والتعايش من بين الحلول التي قدمها "معلوف" لتحقيق التقارب بين المختلفين والمقصود هنا دعوة إلى حوار الحضارات ونسيان الاختلافات، فقد قدم بطله كأنموذج للشخصية التي تحقق هذا الهدف وهذا ركزنا عليه من خلال

المحور الخاص بالهوية ، فإيرادنا لعنصر الهوية بتفاصيل أبعادها لإعطاء لمحة عن الحلول المختلفة للتواصل والتعايش مهما كانت الظروف ومهما اختلفت الأفكار، بالإضافة إلى أنه عرف بحضارة المسلمين والعرب التي امتدت عبر الزمان والمكان من الأندلس إلى فاس والقاهرة...وغيرها من الحواضر.

- تستثمر رواية(ليون الإفريقي)، للروائي "أمين معلوف" التاريخ لتوظفه عنصراً فاعلاً في إنتاج فن الرواية بتمكّن وحذق، وفي رسم بيئة الشرق من دون الاستعلاء عليه والوقوع في فخ مجاملة الغرب أو مغازلته، كذلك من دون تقديم مواقف إدانة ساذجة أو جاهزة لهذا الغرب على وفق أفكار مؤدلجة مسبقة، فقط في بعض ما يتعلق ببعض عناصر الهوية والتخلي عنها أو تغييرها ببساطة.

نلاحظ أيضا أن الأديب قد ركز على الإنسان والهوية باحثا بهذا عن نموذج يحقق من خلاه فكرة التسامح والتعايش والحوار مع الآخر، بالتركيز على بناء الذات بطريقة تسمح بذلك، ويركز هنا على الأنا خاصة (العربي/ المسلم) على اعتبار المضامين والأبطال والظروف التي يؤثث من خلاله أعماله، و كأنها- أي الأنا- هي المسؤولة عن انعدام الحوار مع الآخر ومن ثم صدام الحضارات والحروب والأزمات... يعد"حوار الثقافات "أي المثاقفة"ضرورة حيوية لمختلف الشعوب والحضارات

ونحن حين ننظر إلى مسار الحضارة العربية الإسلامية نتبين أنها لم تبلغ أوج ازدهارها إلا عندما نجحت في التفاعل والتثاقف مع بقية الحضارات التي انفتحت عليها..

وقد أكد القرآن على أهمية التعارف بين مختلف الشعوب، فنحن نقرأ في سورة "الحجرات" : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) سورة الحجرات آية ١٣

وبالإضافة إلى ذلك ؛ "تكتسب المثاقفة أهمية علمية وإنسانية بالنسبة للفرد ، لأنها تنمي معرفته بالآخر ، ونستطيع من خلالها أن ندرك العلاقة بين ضرورة الانفتاح على الآخر ، وضرورة ترسيخ قيم الانتماء ، ولذلك فإن معرفة الآخر ضرورية ليتعرف الفرد على ذاته ومقومات هويته بشكل أفضل وأكمل"[35] ومن ناحية أخرى يعد الحوار وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات ، فهو يزيل كثيرا من الأوهام والأمراض والمخاوف ، ويساعد أيضا على خلق تواصل

وتفاهم أفضل بين الشعوب ، وعلى تفعيل القواسم المشتركة بينها ، مما يؤدي إلى إزالة بؤر التوتر والعداوة التي غالبا ما يغذيها التقوقع والانعزال والجهل بالآخر والأحكام المسبقة والسلبية عنه ، وكل ذلك يمكن أن يؤدي إلى التقارب بين الحضارات ، واستبعاد كل ما يمكن أن يؤدي إلى صدامها ،وهذه الأفكار هي التي سعى الروائي "أمين معلوف" الإبانة عنها بطريقة أدبية، عبر الرواية وشخوصها وأحداثها، فاستثمر لذلك التاريخي ضمن الفني والأدبي ليعبر بالوسيلة التي يمتلكها عن آرائه وهمومه.

هوامش:

[1] عبد الله التطاوي:الحوار الثقافيً مشروع التواصل والانتماءً ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،ط1 ، 2006 ، ص 104 .

[2] مراد حسين عباس : الأندلس في الرواية العربية والأسبانية المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ،ص 16 .

[3] الرواية، ص 14.

[4] الرواية، ص 122.

[5] الرواية، ص 147.

[6]الرواية، ص 212.

[7] الرواية ،ص 370 .

[8] علي حرب : خطاب الهوية ،سيرة فكرية ،الدار العربية للعلوم ،منشورات الاختلاف ،لبنان ، الجزائر ، ط1 ،2006 ،ص36 .

[9] الرواية ص 422 .

[10] الرواية ص 423.

[11] نورة فرج :ارتباكات الهوية :أسئلة الهوية والإشراق في الرواية العربية ـالفرانكفونية،المركز الثقافي العربي،الدارالبيضاء،ص65.

[12] الرواية ص 9.

[13] الرواية ص 120.

[14] الرواية ص 297.

[15] الرواية ص 324.

[16] الرواية ص 394.

[17] الرواية ص 16.

[18] الروايةً :19.

[19]الرواية :ص 175 .

[20] الرواية :ص 175 .

[21] الرواية :ص 85 .

[22] الرواية، ص 85 .

[23] الرواية ص 373.

[24] الروايةً ص 363 .

[25] عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ،بحث في تقنيات السرد،عالم المعرفة ،1978 ،ص 111 .

[26] الرواية : ص 09 .

[27] الهويات القاتلة ،ص 184 .

[28] المرجع نفسه ص، 185.

[29] إشراف، عز الدين إسماعيل، الهوية القومية في الأدب العربي المعاصر، معهد البحوث و الدراسات الأدبية ، مصر ، 1999 ، ص 292

[30] الهويات القاتلة ، ص 103.

[31] الرواية ص 330 .

[32] أمين معلوف : الهويات القاتلة ،ص 184 .

[33] الرواية، ص 452.

[34] أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص190.

[35] محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، 2002، ص09.